طـاعون طرابلس سـنة 1785

د. محمد المفتي

في صيف عام 1785 م في زمن علي باشا القرمللي كانت طرابلس ... تعانـي من قحـط ومجاعة وكثرت الوفيـات، وارتفعت أسـعار الحاجيات ... فـي تلك الفتـرة اندلع الطاعـون فـي تونـس، وتزايـد قلـق النـاس وفعـلاً داهـم الوبـاء طرابلـس فـي الربيـع التالـي، وكان انتشاره عـن طريـق بضع أشـخاص مصابين قدمـوا مـن تونـس.

حتـى ذلـك الزمـن لم تكـن هنـاك علاجـات فعالـة للطاعـون ولا حتـى الوقايـة منـه، الإجـراء المتفـق عليـه آنـذاك كان عـزل المـرضى والحجـر الصحـي، ومنـع ركاب السـفن القادمـة مـن المناطـق الموبـوءة مـن النـزول إلى الشـاطئ. لكـن الطاعـون كان ينتقـل عـن طريـق قمـل الجـرذان .. والجـرذان قـادرة عـلى الوصـول إلى الشـاطئ عـلى حبـال الرسـو، ولم يكـن النـاس يلتفتـون للجـرذان !! كان انتقـال الطاعـون أمـرا محـيرًا. ولم يكـن لـدى الليبيين سـوى كتابـة التمائـم والتوسـل بالمرابطـين.

وتصـف المـس تولـلي في رسـالتها يـوم 29 أبريـل 1785 : "قبيـل منتصـف الليلـة البارحـة، سـارت زوجـة البـك، اللا عيشـة، مع الأمـيرات الثـلاث زكيـة وعويشـة وفاطمـة، عـلى ضـوء المشـاعل إلى المسـجد للصـلاة عند ضريـح ولّي كبـير .. وكان يحيـط بهـن جمـع مـن الوصيفـات والجـواري السـود، ورافقهـن الطواشـية وحـرس الباشـا الخـاص".

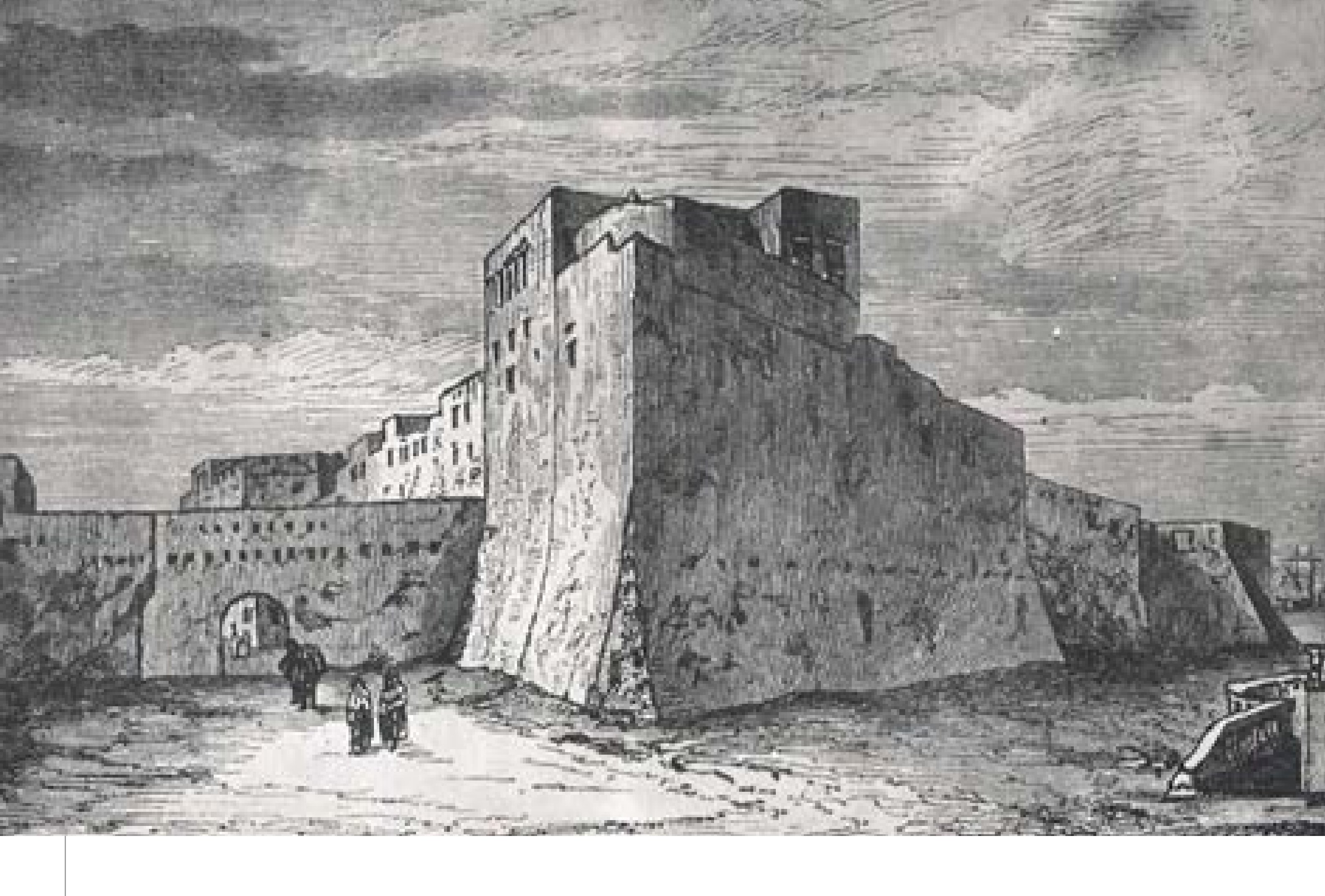
ولكـن أسرة السـفير الإنجليـزي نفسـها لم تكـن أحسـن حـالا في إجـراءات الوقايـة، فكانـوا يجـرون طقوسـا تشـدد عـلى النظافـة وعـدم الملامسـة، لكنهـا في الواقـع أقـرب للسـحر ولا أسـاس علمـي لهـا، لأن لا أحـد كان يعـرف سـبب الطاعـون أو طريقـة انتقالـه، فنجـد المـس تولـلي في إحـدى رسـائلها تقـول : " .. لقـد أعددنـا كثـيرا مـن الجـرار لنسـتعملها في تطهـير الـدار. ونحـن نمـلأ ثلثـي الجـرة بالنخالـة ثـم نعبـئ باقيهـا بثلاثـة أنصبـة متسـاوية مـن الكافـور والمـرّ وعـود النـدّ، ونقـوم بحـرق هـذا العطـر مـع كميـة قليلـة مـن كحـل البـارود في الغـرف كل يـوم.

وقـد تـم إخـلاء جميـع منـازل المسـيحيين مـن الطيـور والحيوانـات المنزليـة، خشـية أن يكـون فراءهـا أو ريشـها واسـطة لنقـل عـدوى الوبـاء. ... و ديـار الأوروبيين هنـا .. لا تفتـح بوابتهـا الرئيسـية إلا بـإذن رب الـدار وفي حضـوره. لاسـتلام الحاجيـات المجلوبـة مـن السـوق. وعنـد البـاب يجـد الخـادم، وعـاء مملـوء بالخـل لاسـتقبال اللحـم، وآخـر فيـه مـاء لاسـتقبال الخـضروات ... ليـس هنـاك ملايـات كتانيـة ولا حريـر ولا سـجاجيد في غرفـة الجلـوس الآن، إنهـا خاليـة مـن كل أثـاث عـدا الطـاولات والكـراسي ذات المقاعـد المغطـاة بالحصـير .. والزائـر في بيتنـا يخـدم نفسـه، ولا يسـمح للخـدم أن يقدمـوا لـه أي شيء حتـى كرسـيا يجلـس عليـه، ونحـن نفعـل ذلـك لنمنـع الخـدم مـن الاقـتراب مـن الزائـر، أو أن يمسّـوا أي شيء لمسـه الزائـر .. إلا بعـد عـدة سـاعات مـن مغادرتـه الـدار".

لكـن الطاعـون المرعـب لا يرحـم، كـما تسـجل لنـا الكاتبـة في رسـالتها (28 /6 / 1785) "لقـد أخرجـت أكـثر مـن 200 جثـة مـن بوابـة المدينـة هـذا اليـوم، هـذا مـع العلـم أن مجمـوع سـكانها لا يتجـاوز 14 ألـف .. [كـما] ارتفعـت نفقـات دفـن الموتى ... وصـارت العائلـة تحمـل ميتهـا الى البـاب، وتعطـى الجثـة لأى رجـل يقبـل أن يلقيهـا عـلى كتفـه أو يحملهـا بـين يديـه، وينقلهـا الى المقـبرة. كـما هـرب الطبيـب الجنـوى في بـلاط الباشـا وجميـع القناصـل ..".

وبعـد شـهرين مـن انـدلاع الطاعـون، في بدايـة يوليـو، كان الطاعـون قـد أودى بحيـاة ثلاثـة آلاف شـخص، أو ربـع سـكان المدينـة، وكان العويـل والنديـب هـو الصـوت المهيمـن عـلى طرابلـس القديمـة، بـل كـثرت الوفيـات حتـى لم تعـد تقـام صـلاة الجنـازة عـلى أصحابهـا، وإنمـا تجمـع التوابيـت ويتـم اخراجهـا مـن بوابـة المدينـة قبيـل الـزوال مـن كل يـوم.

أو كـما سـجلت المـس تولـلي : "بـات المـرء يشـهد خمـس أو سـت جثـث وقـد حملـت معـا عـلى حـمار الى الجبانـة، وقـد أمـر الكولوغـليـة (الجنـود) بالسـير في الشـوارع ليزيلـوا الجثـث التـي يجدونهـا منطرحـة عـلى قارعـة الطريـق، كـما أن جميـع كبـار موظفـي الدولـة قـد هلكـوا، وفقـد البيـك ولديـه الجميلـين".



ولم يتراجع شبح الوباء إلا بعد عام في الصيف التالي، وكانت نتائجه مرعبة فالمدينة شبه مقفرة من السكان .. وكثير من المنازل خاوية .. والشوارع لا أحد فيها، وتكاثر عدد الأطفال الأيتام أما القرى فبدت مهجورة، وكثير من بيوتها موصدة الأبواب بسبب الطاعون .. أقرب إلى المقابر لأن أهلها ماتوا بداخلها وتحللت جثثهم في أفنيتها.

ويسجل نائب القنصل الفرنسي، في تقرير له في صيف 1786، حالة الانهيار الاقتصادي والاجتماعي:

"لم يعد باشا طرابلس يسوس اليوم سوى رعايا متمردين، وفيافي مجدبة، وخرائب مهدمة. وحتى المدينة .. عاصمته .. لم تعد سوى أكوام من الأنقاض .. ولم يعد لبوابات المدينة جدوى، كما تداعت الأبراج والأسوار. لقد أدى توالي سبع أو ثمان من السنين العجاف إلى ارتفاع معدل الوفيات، وإلى هجرة الناس من البلاد، ثم أكمل الطاعون حالة الدمار.. وليست طرابلس الآن سوى صحراء موحشة، وكل شيء ماض في الذبول والاضمحلال بعد أن كانت ميناء مزدهرا يصدّر القمح والشعير والزيت".

يلاحظ رحالة إسباني أن الطاعون أنقص سكان المدينة، وقضى على أسر بكاملها .. حتى أن المرء ما زال يري في بداية القرن 19، منازل مهجورة ومنهارة بسبب الوباء.